تحطم نظرية الأمن الإسرائيلية على صخور الضفة الغربية

توطئة :

تخضع عملية تطور نظريات الأمن للدول والكيانات السياسية إلى مجموعة من الاعتبارات السياسية والأمنية والاقتصادية والديموغرافية ، فكلما زاد تطور التهديد الذي تشعر به هذه الوحدات السياسية أو الحزبية أو الحركية ؛ تغيرت نظرياتها الأمنية التي تحكم وتصوغ إجراءاتها للحفاظ على أمنها وسلامة أبنائها ، كما وتخضع هذه النظريات في تطورها أيضاً للتغير الحاصل في رؤية الدول لمصالحها الحيوية ، والمدى الذي يتسع فيه قوس هذا الفهم للمصالح ؛ موضوعياً وجغرافياً ؛ فكلما زادت المساحات الجغرافية أو تعددت الموضوعات المصلحية ؛ كلما تطورت مفاهيم الأمن ونظرياته لتغطي هذه المساحات ، وتلك الموضوعات . لذلك ومن أجل المحافظة على المصالح القومية ، والموضوعات الأمنية للدول والكيانات السياسية والحزبية والحركية ، من أجل ذلك تقوم هذه الهياكل والأطر بإسناد أمر متابعة تطور التهديدات أو المخاطر التي يمكن أن تتعرض لها مصالحها الحيوية ، تسند أمر متابعتها إلى جهات شغلها الشاغل فقط هذه المواضيع وتلك المضامين ، واقتراح أنجع السبل للحفاظ عليها والدفاع عنها ، وتطلق على هذه الأطر والهياكل مسميات شتى ؛ فدولة تسميها "مجلس الأمن القومي " ، وأخرى ترفع من شأنها فتجعل منها وزارة ، وثالثة يناسبها أن يكون هذا الإطار ؛ إطارٌ ظرفي يجتمع فيه جميع أهل الاختصاص لمعالجة موضوع معين في ظرف معين ، ثم ينحل بانقضاء مهمته . وبعيداً عن الخوض في أصل عمل وصلاحيات ومساحات حركة هذه الأطر الوظيفية ، وحتى لا تتشعب بنا الدروب ، فلا نصل إلى ما هو مطلوب ؛ **فإن هذه الورقة تأتي لتبين كيف أن تصاعد المقاومة في الضفة الغربية خصوصاً ، وفي فلسطين عموماً ، وفي المنطقة شمولاً ، حطم نظرية أمن العدو ، ويكاد (ينعفها نعفاً) ، مسلطة ـ الورقة ـ الضوء على مؤشرات وقرائن هذا التحطم والتهالك ، فقط في ساحة الضفة الغربية** ، حيث ستبحث هذه الورقة هذا العنوان المهم في عجالة عبر مجموعة من العناوين ، تبدأ بتعريف مهمة مقاومة ـ مطلق مقاومة ـ المحتلين ، ثم ستتعرض إلى عناصر نظرية الأمن الإسرائيلية بشيء من التفصيل غير الممل ، ثم تسرد أهم القرائن والشواهد الدالة على ما نقول وندعي ، ثم تختم الورقة هذا البحث بمجموعة من التوصيات الفنية التي تساعد المقاومة في (تنعيم) طحنها لنظرية العدو الأمنية . علّنا بذلك نكون قد أضأنا على مساحة جدلية ، نجيب فيها على بعض التساؤلات القائلة : ما هي جدوى المقاومة في الضفة الغربية ، أمام ما تقدمه البيئة الحاضنة من تضحيات بشرية ومادية ؟

مهمة المقاومة عموماً والفلسطينية خصوصاً :

إن أي مقاومة لمحتل أو غازٍ لها مهمة رئيسية ، تعبيء قدراتها ، وتحشد طاقاتها من أجل تحقيقها ، هذه المهمة يمكن تلخيصها ب " فرض حالة مِن الّلا أمن على العدو المحتل عبر مجموعة من المواقف التي تفرضها عليه المقاومة " والتي من أهمها :

١. **فرض حالة مِن اللّا استقرار على قواته** :

إن أول المواقف التي تفضي إلى شعور العدو بحالة من اللا أمن هو فرض نوع من اللا استقرار عليه وعلى وجوده ، حيثما حل أو ارتحل ، إن الهدف من إشعار العدو أنه غير آمن في أي مكان يمكن أن يصل له أو يتموضع فيه ، الهدف هو منع العدو من التفكير المنظم المطلوب من أجل التعامل مع المواقف القتالية أو الأمنية التي تضعه المقاومة في مواجهتها ، حيث أن أول متطلبات التعامل مع الأزمات والمواقف القتالية الطارئة وغير الطارئة في ميادين القتال ومسارح العمليات ، أول المتطلبات ؛ القدرة على استجماع النفس ، والتفكير المنظم المبني على الوقائع لا على الرغائب ، وكلها أمور يمكن أن تحرم المقاومة عدوها منها إن هي نجحت في فرض حالة من اللا استقرار عليه .

٢. **فرض حالة من الاستنفار المفضية إلى استنزاف القدرات** :

المهمة الثانية الرئيسية من مهام أية مقاومة هي : فرض حالة من الاستنفار والانشغال على العدو ، تستنزف فيه قدراته البشرية والمادية ، فالاستنفار يعني تشغيل مزيد من القوات ، وطلب مزيد من القدرات والامكانيات ، فما يمكن القيام به عبر شخص واحد أو إطار عمل معين في حالة السلم ؛ يطلب تشغيل مزيدٍ من الكوادر ، وكثير من الهياكل والتشكيلات في حالة الاستنفار لعلاجه والتعامل معه ؛ فجزء من القدرات مطلوبٌ للتعامل مع الموقف ، وأخرى مطلوبة من أجل تأمين الحماية لقوات الواجب الرئيسية ، وهذه مهمة ـ فرض الاستنفار على العدو ـ نجاح المقاوم فيها يعني ، حرمان العدو من تحرير قدرات لتشغيلها في العديد من الجبهات والمزيد من المهمات.

٣. **إيقاع أكبر كم من الخسائر البشرية المادية في قوات العدو** :

وهذه المهمة هي أصل هدف أي مقاومة ، خاصة ما هو متعلق منها بالبعد البشري ، فإلحاق الخسائر البشرية بالعدو تأتي على رأس مهام المقاومة ، وإن جاءت في الترتيب متأخرة ، إن إفقاد العدو ما يمكن من عناصر وكوادر ومرتبات عمل ، يعني فتح جبهة داخلية عليه تطارده بسيل من الأسئلة عن جدوى ما يقوم به ، والهدف الذي يخسر الناس فيه أبناءهم وذويهم لأجله ، فضلاً عن أن خسارة الكوادر البشرية ؛ يعني خسارة الكفاءة القتالية حكماً ، فمن سيُزج بهم في المعارك تعويضاً عمن تمت خسارتهم ، لن تكون كفاءتهم القتالية ككفاءة من سبقهم ، لاعتبارات تعبوية مرتبطة بقلة المعرفة بساحة المعركة والعدو الذي يواجهونه ، كما أن انخفاض كفاءة القوات الجديدة مرتبط بشكل رئيسي بالعامل النفسي والمعنوي والذي يكون في أسوأ حالاته ، عندما تعبأ قوات لساحة القتال ، لتملأ فراغاً تركته أخرى خرجت على صورة قتلى أو جرحى .

٤. **فرض الانسحاب الكلي أو الجزئي على قوات العدو مما تحتله من جغرافيات** :

أما المهمة الأخيرة التي تعمل حركات المقاومة والتحرير على تحقيقها فهي : فرض انسحاب ولو جزئي على العدو من جغرافيات معينة ، تتخذها بعد ذلك حركة التحرر كنقطة ارتكاز لعملياتها ، أو رأس جسر تنفتح منه قواتها بعد حشدها وتأمين متطلبات توسيع

وضعيتها القتالية انطلاقاً منها ، لتحرير ما يمكن من مساحات وجغرافيات ، أو السيطرة على النقاط الحساسة والاستراتيجية في ساحة المعركة .

هذه هي أهم المهام التفصيلية التي تفضي إلى إيصال العدو إلى حالة من اللا أمن المطلوب إيصاله لها ، حتى يقتنع أن أكلاف بقائه محتلاً أكبر بكثير مما لو انحسب أو انكفأ عن الأرض التي احتلها أو سيطر عليها . أما عن عناصر النظرية الأمنية الإسرائيلية ؛ فإننا سنأتي عليها في العنوان الآتي .

عناصر نظرية الأمن الإسرائيلية :

١. **الردع** :

إن أول مرتكزات نظرية الأمن الإسرائيلية التي وضعها مؤسسو هذا الكيان المؤقت ، وعلى رأسهم " بن غوريون " هو الردع ، الردع بمعنى الدخول إلى عقول أعدائهم وإيصالهم إلى قناعة بأن ما سيكسبونه من شن أية حرب عليهم ـ على الكيان المؤقت ـ أقل بكثير مما سيتكبدونه من خسائر ، فيحجموا عن التفكير في محاولة تحرير ما احتل من أرض ، وما اغتصب من أملاك . إن الردع يعني امتلاك القدرة المثبتة الجدوى ، والعزم الصادق على التشغيل إذا اجتيزت الخطوط الحمر المُعرّفة والواضحة ، وخط اتصال ـ مباشر أو غير مباشر ـ بين طرفي المعادلة ، ومصداق واضح على مدى أثر عقوبة تجاوز الحدود ، وانتهاك المحرمات الوطنية والقومية . فإن توفرت هذه الشروط ؛ رُدِعَ العدو ، وامتنع عن العدوان .

٢. **الإنذار** :

الركيزة الثانية من ركائز نظرية الأمن الصهيونية هي الإنذار؛ فعندما لا يرتدع خصوم العدو وأعداؤه عن التحرش به ، والتعرض له ؛ فإنه ـ العدو ـ يحرص على أن يلوح لهم ببعض قدراته القتالية ، على قاعدة الإنذار ودفع الأعداء إلى مراجعة حساباتهم والكف عن التفكير في التعرض له ، وهذا الإنذار قد يكون على عدة صور ، وأشكال وطرق عمل مختلفة ؛ فمرة يرسل رسائله عبر القنوات الدبلوماسية المباشرة أو غير المباشرة ، ومرة عبر وسيط من الوسطاء الدوليين الذين يملك هو وأعداؤه صلات معه ، كما يمكن أن يكون هذا الإنذار عبر مناورة قتالية يحرص فيها العدو أن يقرأ خصومُه مجرياتها على أنها إنذار من نوع ما ، فضلاً عن القنوات والتصريحات والبيانات الإعلامية التي يقوم العدو عبر ساسته بإصدارها بين الفينة والأخرى .

٣. الحسم :

قاعدة الارتكاز الثالثة في نظرية أمن العدو ، هي الحسم ، فإن لم يرتدع خصوم العدو وأعداؤه ، أو لم يقرؤا رسائل الإنذار المرسلة ؛ فإنه يخرج في عملية عسكرية يحرص أن تكون قصيرة المدة ، مؤكدة النصر ، كونه ـ العدو ـ لا يخوض حروبه مالم يكن متأكداً من حتمية النصر ، وسرعته ، وعدم تضرر جبهته الداخلية ، فإن تحققت له هذه المعطيات عبر ما قام به من تقديرات ؛ خرج في عمله العسكري الذي يحرص على أن يكون حاسماً قاصماً للتهديد وأدواته .

٤. **الدفاع** :

لقد أضاف العدو بعد تطور المقاومة في داخل فلسطين المحتلة وخارجها ، عنصراً رابعاً لنظرية أمنه هذه ، ألا وهو عنصر الدفاع ؛ فبعد حربه ضد حزب الله في لبنان في تموز ٢٠٠٦ ، ومجمل حروبه التي خاضها ضد المقاومة في غزة ، وبدء وصول تهديد نار المقاومة إلى (جبهته) الداخلية ، تيقن العدو أن زمن الإضرار بالآخرين وبقاءه بعيداً عن الضرر قد ولت ، لذلك بدأ بعمل إجراءاته الدفاعية ـ السلبية والايجابية ـ علّه بذلك يحمي أصوله الاستراتيجية ؛ البشرية والمادية ، وما الضربات الاستباقية ، واستراتيجية المعركة بين الحروب إلا أحد تجليات عمليات الدفاع الاستباقي وعدم انتظار تبلور التهديد ، ومنعه من الخروج إلى حيز التنفيذ .

قرائن وشواهد تحطم النظرية :

بعد استعراض مهام المقاومة ، ونقاط ارتكاز نظرية الأمن الإسرائيلية ، نصل إلى محور هذه الورقة ، والتي نستدل من خلالها على الشواهد التي تدلل على تحطم نظرية أمن العدو على صخور الضفة الغربية ، وبين قراها وخِرَبها ومدنها ــ وفي هذا الجزء من الورقة لن نطيل الحديث ، ففعل الميدان يدل على ذاته ـ حيث تعد النقاط الآتية من أهم قرائن وشواهد تحطم هذه النظرية .

١. **استمرار عمليات المقاومة** :

إن أهم قرينة وشاهد على تحطم نظرية أمن العدو ، وعدم جدواها في ردع المقاومين ومنعهم من التصدي له ، والاحتكاك به ، أهم قرينة ما نراه من الفعل المقاوم اليومي ، فلا يكاد يمر يوم دون أن تقع فيه عملية هنا أو هناك ، فمرة تطلق النار على حواجز الجيش ونقاطه ، وأخرى يرجم المستوطنون بالنار وبالأحجار ، ويكمن لقطعان المغتصبين على الطرق والممرات ، فضلاً عن العمليات التي تتم في داخل أرضنا المحتلة عام الثمانية والأربعين ، فإن لم يكن استمرار المقاومة على هذا النحو ، وبهذه الوتيرة ، من أدلة تحطم نظرية العدو الأمنية ، فماذا تكون ؟

٢. **استمرار عمليات التوغل واجتياح المدن والقرى** :

كما يعد استمرار العدو في الدخول إلى مدننا وقرانا ، وتوغله فيها دليلاً آخر على عدم جدوى توعده و(إنذاره) بالويل والثبور وعظائم الأمور لمقاومينا وبيئتهم الحاضنة إن بقيت حالهم على ما هي عليه من مراكمة القوة ، والتجهيز والإعداد للتعرض له ، أو بقي أهلنا وناسنا حاضنين للمقاومة ، فإنه سينزل بهم العقاب تلو العقاب ، وسيقتل ويدمر ما تصل له آلة بطشه ، ومع ذلك يخرج المقاومون من المدن ليتعرضوا له ويحتكوا به ، وتُخرج له حاضنتنا الشعبية خيرة أبنائها ، فتدفعهم في صدره ، فينزلوا به الخسائر ، ويكوون وعيه ، فلا التوغل والاجتياح منع مقاوم من فعل يريد القيام به ، ولا أخاف الحاضنة الشعبية فلفظت أبناءها ، وهذا عين عدم جدوى إنذار العدو وتهديده في فرض ما يريده .

٣. **ضعف ضرباته الانتقامية** :

لقد بلغ الوهن من العدو مبلغه ، فكلما وقعت عملية فدائية ، أرغى وأزبد ، وهدد وتوعد ، ثم عند الفعل ؛ ترى جبلا يتمخض والداً فأراً ، طبعاً هذا التوصيف لا يراد منه القول أن العدو لا يؤذي المقاومة ، أو أن ضرباته وردات فعله لا تؤثر فيها ، أو أنه بلغ من الضعف ما يمكن أن ينهار معه غداً أو بعد غد ، إن الهدف من قول هذا هو أن مراجعة بسيطة لسلوك العدو في الماضي يرينا مدى رد فعله على عمليات المقاومة ، وكيف كان يجبي منا أثماناً غالية ، واليوم بعد العمليات الفدائية ترى منه جعجعة ولا ترى طحناً حقيقياً ، وجل ما يقوله ويصرح به أن اجتماعاً لمجلس الوزراء سيعقد ، أو أن تقييماً للوضع الأمني سيتم ، فننتظر ما تبلور في هذه اللقاءات ، وتلك الاجتماعات ، فنراها لا تشبه ما كان يفعله في السابق من انتقام ومحاسبة ، وهذا أيضاً دليلٌ على تحطم نظرية أمنه على صخور ضفتنا ، وفي قراها ومدنها .

٤. **حالة الخروج العكسي من فلسطين إلى خارجها** :

إن مركز ثقل مشروع هذا المحتل الغاصب هو العنصر البشري ، وجمعه في أرضنا ، وتوفير أفضل سبل الحياة له ، وأن لا أمن لهم في العالم كله ما عدا في (دولتهم) المؤقتة ، وقد بذل وما زال يبذل قادة هذا العدو كل ما يملكون في سبيل مضاعفة كتلتهم البشرية في أرضنا المحتلة ، ولكن خاب فألهم ، وطاش سهمهم ، فها هي حركة الخروج العكسي من فلسطين المحتلة تقارب إن لم تتفوق على نسبة القادمين لها من الخارج ، لقد أصبحت بيئة فلسطين عموماً ، والضفة الغربية خصوصاً ، بيئة طاردة لا يطيق العدو البقاء فيها ، وهذا كله بفضل الله أولاً وأخيراً ، ثم بفضل جهود المقاومين والمجاهدين الذين أحالوا نهار هذا العدو ليلاً ، وبمقاومتهم وتعرضهم له واحتكاكهم به ، وهذا أيضاً دليلٌ قاطع لكل ذي لب على أن نظرية أمن العدو قد طُحنت في الضفة الغربية ، والمدن الفلسطينية .

٥. **حالة اللا أمن التي يشعر بها المحتلون** :

وهنا سندع الأرقام تتحدث عن نفسها ، وتوصّف ما وصل له العدو ومغتصبوه من حالة شعور باللا أمن التي ستدفعه صاغراً ـ وإن طال الزمن ـ على الخروج من أراضينا ومدننا ، فـ ٥٥ % من المحتلين يشعرون بضعف أمنهم الشخصي ، ٥٢ % من مغتصبي بلادنا يقولون أنهم لن يتنقلوا عبر طرق النقب والجليل ، و ١٨ % من هؤلاء المحتلين صرحوا بأنهم لن يخرجوا من بيوتهم في الليل لشعورهم بعدم الأمن في مناطقهم . فإن لم يكن هذا قرينة ودليل على التحطم والطحن والتهشيم ، فماذا يكون ؟

كانت هذه بعض أهم القرائن والشواهد الدالة على تحطم نظرية العدو الأمنية على صخور سناسل (حواجير) الضفة الغربية ، وما خفي ـ الأثر النفسي على العدو ـ أعظم مما ظهر ، والقادم لنا أفضل ، ولعدونا سيكون الأسوأ . وحتى يساء وجه هذا العدو المحتل ، ويُزاد في (تنعيم) عملية طحن نظريته فإننا نوصي بالآتي :

١. المعلومات ثم المعلومات ثم المعلومات ، عن هذا العدو ، فلا تترك شاردة ولا ورادة عنه إلا وتجمع .

٢. التفكير والعمل الجماعي الذي يشارك فيه جميع أبناء فصائل المقاومة وتنظيماتهم في الداخل والخارج ، فأعداؤنا يفكرون ويعملون بشكل جمعي ، ولا ينكث غزلهم سوى الفعل الجمعي والجماعي .
٣. الصبر الصبر ، وطول النفس ، وبرودة الرأس ، وعدم التهور ، والابتعاد عن العمل وفق شروط العدو أو اللعب في ملعبه ، بل نحن من يجب أن يفرض على العدو المكان والزمان والظرف الذي يناسبنا للعمل ضده والاحتكاك به.
٤. الحفاظ على البيئة الحاضنة ، وعدم تحميلها أكثر مما تطيق ، وتجشيمها الصعاب في غير طائل ، فالله الله بها ـ الحاضنة ـ لا تنفض عنا .
٥. تقسيم الأحمال ، وتوزيع الأعمال وعلى رأي كبارنا و (ختياريتنا) الحمل إذا (توزع) بنشال ، فما لا نقدر عليه منفردين ؛ حتماً سنقدر عليه مجتمعين .

إن عدونا يشهد أسوأ أوضاعه وأوقاته ، ويفقد الثقة بنفسه يوماً بعد يوم ، وقد أصبح أقرب حلفائه له يناقشون جدوى بقاء تحالفهم معه ، بل إن بعضهم أصبح يرى أن أكلاف العلاقة معه أصبحت عالية ، وجدوى هذه الصداقة مشكوك فيها ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن أثر المقاومة بدأ يُرى ويُحس ، وأن منحنى تطورها في صعود ـ وإن اعتراه بعض النزول أحياناً ـ ولكن هذا لا يجب أن يجعلنا ننام على حرير ، أو نخطئ التقدير ، أو نغفل عن طبيعة هذا المسير المليء بالأكلاف والتضحيات ، ولكننا بكل ثقة نقول أننا قد وضعنا قدمنا على مسار التحرير ، وأن رحلة العودة إلى بلادنا بدأنا نسمع قرقعة التحضير لها ، والتجهيز لبدئها . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

عبد الله أمين

١٠ ٠٩ ٢٠٢٣